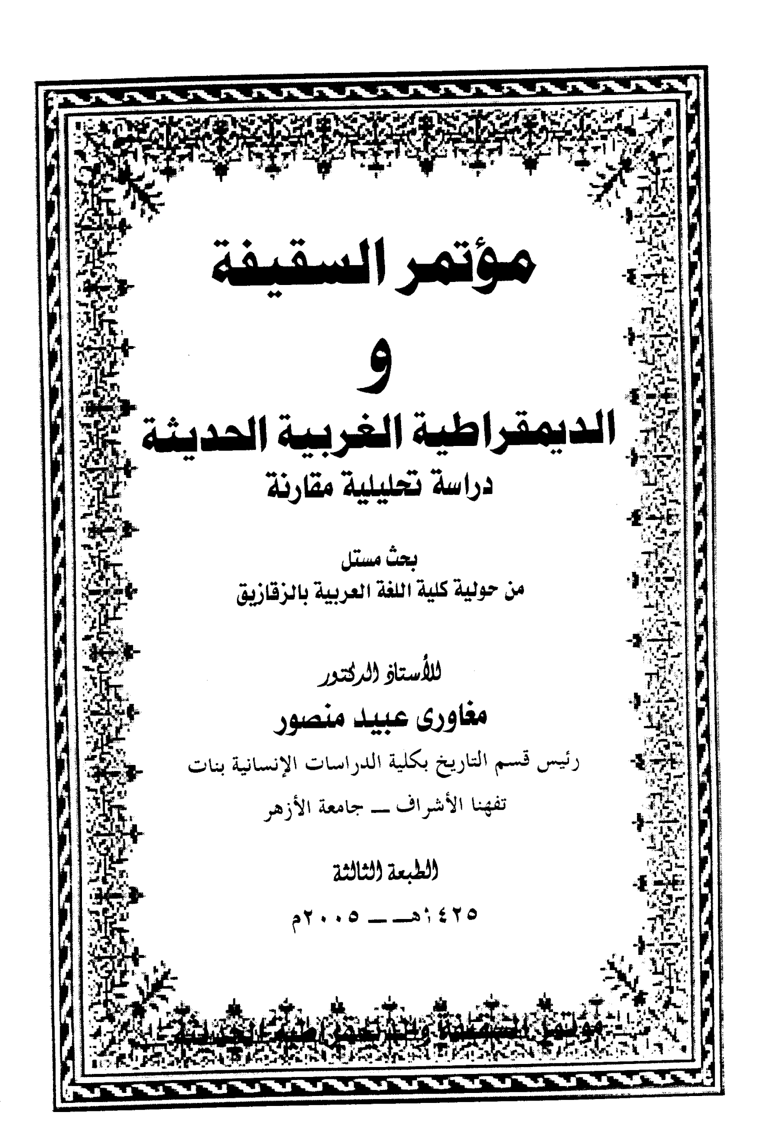


مؤتمر السقيفة

و

الديمقراطية الغربية الحديثة

دراسة تحليلية مقارنة

بحث مستل

من حولية كلية اللغة العربية بالزقازيق

للأستاذ الدكتور

مغاوري عبيد منصور

رئيس قسم التاريخ بكلية الدراسات الإنسانية بنات

تفهنا الأشراف ــ جامعة الأزهر

الطبعة الثالثة

١٤٢٥هـ ــ ٢٠٠٥م

مؤتمر السقيفة والديمقراطية الحديثة

مقدمات المؤتمر :

إن من ينظر إلى حال الأمة الإسلامية يوم وفاة النبى ﷺ لابد وأن يقع على حقيقة مهمة ، هى: كيف ينتظم أمر الأمة بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى ، وكيف تُساس الأمور فيها؟

وقد كان النبىﷺ مُبلغ رسالة ، وصاحب دعوة ، ونبى أمة نقل لأمته كل ما تلقاه من ربه عزوجل ، وفصّله لهم ليعملوا به ، وشرح لهم بفعله ما استشكل عليهم وغمض ، حتى صار كل عمل يأتيه أو قول يُسمع منه منهاجا واضحا ، وسراجا منيرا ·

وفى هذا الصدد لا نجد أحدا من البشر دُونت كل حركات حياته كاملة إلا المعصوم ﷺ الذى سجلت له كل حركة وسكنة ، ولفظة وسكتة ، وإشارة وإيماءة ، ورقدة ويقظة ، لأن ذلك كله يمثل المنهج الواضح الذى يجب على الأمة أن تتخذه مسلكا وغاية لإنجاح مهمتها فى خلافتها لله فى الأرض ·

وتحقيقا للهدف الأسمى من الرسالة فإن النبىﷺ لم يدخر جهدا فى سبيل تعليم الأمة كيف تكون حياة المؤمن مستنيرة وضّاءة ، فأوقفهم على كل ما أُنزل إليه من ربه ، وُصولا بالأمة إلى قمة العلم والمعرفة والارتقاء ·

وإذا كان النبىﷺ قد أتم تبليغ الشريعة للناس وأقرها بينهم ، ورسم لهم بسياسته الحكيمة كيف يكون الحاكم المسلم فى قومه ، فإنه لم يُبْق

لمن يخلفه إلا القيام بحراسة الشريعة وحمايتها ، وتدبير أمر الأمة من خلال الاحتكام إلى كتاب الله وسنة نبيه الأمين وهما ركيزتا المنهـاج الذى قال عنه ﷺ : " تركت فيكم ما إن ما تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسننى" .

وهنا يبرز التساؤل الآتى : كيف يجتمع المسلمون علـى خليفـة جديد لرسول الله ﷺ ؟ وما الكيفية التى ستتم بهـا طريقـة توليتـه ؟ وبخاصة وأنها أول سابقة للمسلمين فى هذا الشأن ، ولم يُعيِّن النبى ﷺ من يخلفه ، كما لم يحدد الإسلام نظاما مفصَّلا للحكم ، وإنمـا وضـع القواعد العامة التى يقوم عليها نظام الدولة ، ورسم للحاكمين بطريـق التحديد مبادئ الحكم الصالح الذى يقود الجماعة إلى الخير والسعادة .

وكان مِن بين هذه المبادئ الأساسية أن جعـل الشـورى أصـلا للحكم، ثم ترك للأمة اختيار المظهر الذى يتطـور بتطـور الزمـان والمكان، لتختار هى بنفسها حسبما ترى من مصالحها [١] .

ولقد ذُعر المسلمون لما سمعوا بوفاة النبىﷺ ودارت بهم الأرض لفقْد نبيهم وحبيبهم الذى نقلهم من ظلمات الجاهلية إلـى نـور الحـق واليقين ، حتى إن أجراهم وأشدهم صلابة وهو عمر بن الخطاب، لـم يتحمل فجيعة الخبر ، وتوعد من يقول به ، إلى أن جـاء أبـو بكـر الصديق ــ لما علم الخبر ــ فلم يلتفت إلى شئ حتى دخل على رسول الله وهو مسجى ببردته فى ناحية من البيت ، فكشف عن وجهه ثم قبله

---

(١) أستاذنا الدكتور / عبد الفتاح على شحاته : تاريخ الأمة العربية ص ١٦ .

وقال : " بأبى أنت وأمى ، أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ثـم لن يصيبك بعدها موتة أبدا" ، ورد الثوب على وجهه[١] وخرج وعمـر ابن الخطاب يكلم الناس بشدة وتوعد ، فقال: "على رسـلك يـا عمـر فأَنْصِتِ" ، ولم يذعن عمر لما قاله ، وأبى إلا أن يتكلم ، فلما رأى أبو بكر ذلك منه أقبل على الناس وحدثهم ، فأقبلوا عليه ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : " أيها الناس . إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قـد مات ،ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت،ثم تلا الآية:﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ﴾ [٢] إلى آخر الآية ، وكأن الناس لم يسمعوا بها من قبل ، وها هو عمـر بـن الخطاب يقول بعد ما سمعها : " والله ما هو إلا أن سمعت أبـا بكـر يتلوها فعقرت ــ أى دهشت ــ حتى وقعت إلى الأرض مـا تحملنـى رجلاى ، وعرفت أن رسول الله قد مات"[٣].

تلك هى الظروف النفسية التى عاشها المسلمون حين وفاة النبـى ﷺ ، وهى ظروف تضيف إلى عبء اختيار الخليفة القادم أعباء أخـر جسام ، إذ أن من يضطلعون بالرأى وتفنيد الحجة لابد وأن يكونوا فى حالة نفسية هادئة ، حتى تأتى أحكامهم غير ثائرة أو متـوترة ، كمـا

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٠٠ " بتصرف يسير " .
(٢) من الآية ١٤٤ من سورة آل عمران .
(٣) تاريخ الطبرى:ج٣ ص٢١٠، ابن الوردى : تتمة المختصر فى أخبار البشر ج١ص٢٨٥،الشيخ محمد الخضرى:نور اليقين فى سيرة المرسلين ص١٩٣ .

يجب أن يكونوا قد طرحوا الموضوع للمناقشة فيما بينهم ، ومحصوه بعقولهم وترادوا فيه الكلام ٠

غير أنه بينما يلتف المهاجرون حول بيت النبىﷺ فى هذه الحال التى لم يشغلهم سواها ، إذ يأتى إلى عمر بن الخطاب من يخبره باجتماع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة لاختيار خليفة لرسول اللهﷺ يقوم بأمر الأمة . ويحمل عمر ﷺ الخبر إلى الصديق القائم بجوار حبيبه الذى لحق بربه ، فيرد الصديق عليه : إنى مشتغل ، أى مشغول بأمر تجهيز جثمان النبىﷺ ، فيؤكد له عمر أن قد حدث أمر لابد لك من حضوره ، فخرج إليه ، فقال عمر : أما علمت أن الأنصار قد اجتمعت فى سقيفة بنى ساعدة ، يريدون أن يولوا هذا الأمر سعد بن عبادة ؟

الأنصار فى السقيفة :

إذن لنقف هنا لحظة مع وجهة نظر المجتمعين فى السقيفة قبل أن يلحق بهم المهاجرون ، فلقد رأى الأنصار شغور منصب رئيس الدولة والأمر يتطلب ضرورة التغلب على أحداث الموقف واختيار من يقوم بأمر المسلمين فى ظروف شديدة الخطورة والحساسية ؛ فالعرب ما يزال أكثرهم على الشرك ، يتربصون بالمسلمين الدوائر ، كما لا تزال أمام المسلمين الكثير من أعباء صيانة الدين وإقراره بين الناس ٠

كل هذا كان فى مخيلة الأنصار ، ولذلك اجتمعوا لتقرير هذا الأمر الخطير ، أما لماذا قرروا أن يكون الخليفة منهم ؟ فما ذاك إلا لأنهم

رأوا أنفسهم أهـل المدينـة ، وأصـحاب المصـالح الكبـرى فيهـا والمهاجرون مشتغلون بتجهيز جثمان النبىﷺ ، كما رأوا أنهـم أهـل العدد وأصحاب السيوف التى تركَّز الإسلام بهـا ، وحمـاة الـدعوة الإسلامية ، حينما كانت قريش تضطهد الدعوة وتعذب معتنقيها ، ثـم هُم ــ كذلك ــ أنصار الرسول وحواريوه ، وهذه المقومـات تجعلهـم أحق بالإمارة من قريش التى لفظت الإسلام وطردته وأهله[١] .

كذلك خشى الأنصار استئثار المهاجرين من القرشـيين بالخلافـة فتكون سنة فى قريش أبد الآبدين ، وإن يذهب الصالحون من أصحاب النبى ﷺ فإن مَن يأتى مِن بعدهم قـد لا يعـرف للأنصـار فضـلهم وسابقتهم فى الدين ونصرتهم لرسوله ، فيجورون عليهم ، أو يُغمطوهم حقهم ، فكان سبق الأنصار إلى السقيفة تحوُّطا لهذا الأمـر ، وتفاديـا لحدوثه ، وهو أمر يحمل فى طواياه حرصا على الدين ، وحبـا فـى صيانته من رءوس قريش الذين ما يزالون حديثى عهد بالإسلام ، وقد تُعاودهم عصبيتهم الأولى فتضيع الأمور فى غوغائها .

وكان الدليل على هذا الحرص من الأنصار أنهم احتملوا مطالبـة المهاجرين إياهم بالإمارة ، فقرروا لذلك جعلها ــ حينئـذ ــ مناصـفة بينهم ، ودليل آخر هو سرعة اقتناعهم بما حدَّثهم به أبو بكر من بعد ، ومبادرتهم إلى مبايعته ، وكل هذا يُظهر أن فكرتهم ما كانـت إلا مـن

---

(١) الدكتور : عبدالفتاح على شحاته : تاريخ الأمة العربيـة ص ١٦ ، ونفـس المعنى للدكتور : عبدالمقصود نصار فى كتابه الخلفاء الراشدون ص ١٢ .

أجل الحفاظ على الدين ، وحماية الدولة ، فلما وجدوا من يقوم بالمهمة التى أرادوها تركوا الأمر له ، كما سيتضح فيما بعد .

يضاف إلى كل ما سبق أن الأنصار وهم أهل المدينة وأصـــحابها قد ظنوا أن المهاجرين بعد لُحُوق النبىﷺ بالرفيق الأعلى ســيعودون إلى أرضهم وديارهم بمكة ، حيث ما يزالون حـــديثى عهــد بسُــكنى المدينة فلم تمض فترة كافية تجعلهم يقررون التمسك بالمقام فى المدينة وإنما هى مدة الإحدى عشرة سنة التى قضوها بصحبة رســول الله ﷺ فقط، وبهذا يكون عبء رياسة الدولة من شأن الأنصار وحدهم.

وبكل هذا تبرأ ساحة الأنصار من أن يكونوا قــد دبــروا للأمــر وعزموا على الظفر به من دون المهاجرين ، وذلك جلى بيِّن من خلال الخطبة التى ألقاها على الأنصار فى السقيفة زعيمهم سعد بــن عبــادة الخزرجى والذى كان قد تقرر اختياره رئيسا للدولة ، إذ قال بعــد أن حمد الله وأثنى عليه : " يا معشر الأنصار . إن لكم سابقة فــى الــدين وفضيلة فى الإسلام ليست لقبيلة من العرب ، إن محمداﷺ لبث بضــع عشرة سنة فى قومه ، يدعوهم إلى عبادة الرحمن ، وخلع الأوثان فمــا آمن به من قومه إلا رجال قليل ، والله ما كانوا يقدرون على أن يمنعوا رسوله ، و أن يعزوا دينه ، ولا أن يدفعوا عن أنفسهم فيما عموا بــه حتى إذا أراد الله بكم الفضيلة ، ساق إليكم الكرامة ، وخصكم بالنعمــة ورزقكم الإيمان به وبرسوله ، والمنع له ولأصحابه، والإعــزاز لــه ولدينه ، والجهاد لأعدائه ، فكنتم أشد الناس على عدوه من غيــركم ،

حتى استقامت العرب لأمر الله طوعا وكرها ، وأعطى البعيد المقادة صاغرا داخرا ، وحتى أثخن الله لرسوله بكم الأرض، ودانت بأسيافكم له العرب ، وتوفاه الله إليه وهو عنكم راض ، وبكم قرير العين استبدوا بهذا الأمر دون الناس ، فإنه لكم من دون الناس"[١].

وقد لقى هذا الكلام من سعد فى نفوس الأنصار قبولا ، فأجابوه بأجمعهم أن قد وُفقت فى الرأى ، وأصبت فى القول ، ولن نعدو ما رأيت، نوليك هذا الأمر، فإنك فينا رفيع، ولصالح المؤمنين رضا[٢].

وواضح هنا أن الأنصار لم يُعدوا لهذا الأمر من قبل ، بدليل أنهم اختاروا سعد بن عبادة وهو مريض مزمل بعباءته لا يستطيع أن يُسمع مخاطبه ، إذ كان ينقل كلامه عنه إلى الناس قريب له كى يُسمعهم ولو كانوا قد أعدوا للأمر من قبل لاختاروا رجلا قويا صحيحا يستطيع تحمل المهمة الثقيلة ، ومقاومة من يختصم عليه ، ومن ثم فما كان اختيارهم هذا إلا تهيبا من سعد بن عبادة لكبر سنه ومنزلته وحسب.

وقد جال بخاطر بعض الأنصار ما قد يثار فى هذه المسألة من جانب المهاجرين ، وترادوا الكلام فيما بينهم ، وقالوا : فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا : نحن المهاجرون وصحابة رسول الله الأولون ونحن عشيرته وأولياؤه ، فعلام تنازعونا هذا الأمر بعد ؟ فكان فى هذا

---

(١) تاريخ الطبرى : ج٣ ص٢١٨ . الإمامة والسياسة ص ٥ نهاية الأرب ج١٩ ص٣٠ .

(٢) تاريخ الطبرى ج٣ ص ٢١٨ ، نهاية الأرب ج١٩ ص ٣٠ .

تخَيَّلُ لرأى المعارضة التى قد تَجدُ من جانب المهــاجرين ، ودراســة للحجج التى قد تقوم فى وجههم ، فماذا هم قائلون ؟

ورأى بعض الأنصار أنه إذا طلب المهاجرون الإمــارة ، فإنهــا تكون مناصفة بينهم ، ويُختار أمير من كل فريق[١] ، إرضــاء لكافــة الأطراف ، فلما سمع بذلك سعد بن عبادة قال : هذا أول الــوهن (أى الضعف) ، وربما دعاه إلى هذا القول أن الأمر ــ أىّ أمرٍ ــ يفســد بتعدد الأمراء ، على أن ذلك التخيل من الأنصار وإتــاحتهم الفرصــة للمهاجرين بإقامة أمير منهم يدل دلالة قاطعة علــى اعتــرافهم بحــق المهاجرين فى هذا الأمر .

وفد المهاجرين فى المؤتمر :

نعود إلى أبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، إذ أسرعا إلى السقيفة لتدارك الموقف ، واستئصال جذور الفتنة التى قد تنشب ، فيلتقى بهمــا فى الطريق قَدَراً أبو عبيدة بن الجراح ، وينطلق الثلاثة إلــى الســقيفة ليتقابلوا فى طريقهم برجلين من الأنصار هما: عويم بن ساعدة ومعن ابن عدى : فيشيران عليهم أن ارجعوا فاقضوا أمركم بينكم فإنه لم يكن إلا ما تحبون ، ولعل هذه الإشارة من الأنصاريَّيْن لعلمهمــا أن أمــر السقيفة هين ، وليس بأهم من أمر تجهيز النبىﷺ ودفنه .

وهنا قد يفهم البعض ــ بعقلية اليوم ــ أن الأنصاريين مــا كانــا يقصدان إلا التعمية والتمويه على المهاجرين ، لكن ذلــك مــردود ولا

---

(١) القاضى ابى بكر بن العربى : العواصم من القواصم ، ص ٤٠ " بتصرف "

صحة له ، إذ الأحداث كلها وليدة اللحظة ، لم يتم لها إعداد ، بدليل أنه لو كان الأمر كذلك ما اجتمع الأنصار فى السقيفة المعروفة والمعهودة للجميع ، ولاختاروا مكانا خفيا يعقدون فيه مؤتمرهم ، وكل ذلك مما لم يحدث ولم يخطر ببال !

وعلى كل فإن أبا بكر وصاحبيه لم يلتفتوا إلى ما قاله الأنصاريان، وقصدوا إلى المجتمعين فى السقيفة ، فدخلوا قبل أن يُتموا أمرهم أو يَنْقص جَمْعهم ، وهمَّ عمر بن الخطاب أن يتحدث بكلام كان قد هيأه فى نفسه ، لكن أبا بكر كان يعلم شدته ، فقال : على رسلك يا عمر ، ثم انطق بعدُ بما تحب وكأن أبا بكر قد أدرك ببديهته أن الموقف لا يحتمل التشاحن أو المشادة فى الرأى : بل يتطلب الهدوء وضبط النفس ، فقام فى الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : "إن الله بعث محمدا رسولا إلى خلقه وشهيدا على أمته ، ليعبدوا الله ويوحدوه : وهم يعبدون من دونه آلهة شتى ، ويزعمون أنها لهم عنده شافعة ، ولهم نافعة ، إنما هى من حجر منحوت ، وخشب منجور ... فعظمُ على العرب أن يتركوا دين آبائهم فخصَّ الله المهاجرين الأولين من قومه بتصديقه ، والإيمان به ، والمواساة له ، والصبر على شدة أذى قومهم لهم، وتكذيبهم إياهم، وكل الناس لهم مخالف ، زار عليهم، فلم يستوحشوا لقلة عددهم،وشنف الناس لهم، وإجماع قومهم عليهم،فهُم أول من عبدالله فى الأرض وآمن بالله وبالرسول وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم ذلك إلا ظالم " [١] .

(١) تاريخ الطبرى ج٣ ص ٢٢٠ ، نهاية الأرب ج ١٩ ، ص ٣٣ .

فكان هذا البيان كافيا لإظهار حق المهاجرين فى الإمارة ، إظهارا لا يحمل فى طواياه تعالٍ ولا أنفة ، وإنما يخرج من قلب مؤمن . لينير الطريق ويهدى الحائر ، ويجمع الشمل على كلمة سواء ، فى جو ملتهب بالحماس الذى قد يشتعل نارا ويُنشب فتنة .

ثم إن المتحدث هنا لا يُؤثر قومه بالذكر والتزكية ، وينسى الطرف الآخر وإنما يقرر لهم ما يُعلى من شأنهم ، ويحفظ لهم قدرهم أسوة بإخوانهم من المهاجرين ، فلكلاهما حقه وقدره ومنزلته ، ولذلك يوجه أبو بكر حديثه إلى الأنصار قائلا : " وأنتم يا معشر الأنصار . من لا ينكر فضلهم فى الدين،ولا سابقتهم العظيمة فى الإسلام رضيكم الله أنصارا لدينه ورسوله، وجعل إليكم هجرته، وفيكم جلة أزواجه وأصحابه، فليس بعد المهاجرين الأولين عندنا أحد بمنزلتكم فنحن الأمراء وأنتم الوزراء،لا تُفتاتون بمشورة،ولا تُقضى دونكم الأمور"(١).

ويبدو أن هذا الكلام من أبى بكر قد ألقى بظلال من الطمأنينة والارتياح فى قلوب الأنصار ، وبخاصة وأنه حديث لم يظهر فيه تعصب من قائله على غرار ما ظهر من عصبية سعد بن عبادة فى حديثه من قبل . مما دعا أبا بكر إلى أن يستطرد قائلا : " أيها الناس . نحن المهاجرين أول الناس إسلاما ، وأكرمهم أحسابا وأوسطهم دارا وأحسنهم وجوها ، وأكثرهم ولادة فى العرب: وأمسهم رحماً برسول الله ﷺ، أسلمنا قبلكم، وقُدمنا فى القرآن عليكم ، فقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ

---

(١) تاريخ الطبرى ج ٣ ص ٢٢٠ ، العواصم من القواصم ص ٤٣ .

الأوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ﴾ (١)، فنحن المهاجرون، وأنتم الأنصار ، إخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفيئ وأنصارنا على العدو ، آويتم وآسيتهم فجزاكم الله خيرا ، فنحن الأمراء وأنتم الوزراء ، لا تدين العرب إلا لهذا الحى من قريش، فلا تنفسوا على إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله"(٢).

ولا يصح أن نفهم من هذه المقولة الأخيرة لأبى بكر أنه يزكى المهاجرين من دون الأنصار ، أو يأتى بمبررات من عنده لتعزيز موقفه، على غرار ما يفعله البعض فى مجتمعاتنا الحديثة ، حينما يتعصب كل فريق لما يراه ، ويختلق من الأسباب والمبررات ما يزكى رأيه ، إنما كان ما قاله أبو بكر يخرج من ثنايا كتاب الله وسنة نبيه ومن خلال ثَبْت الأيام للأحداث(٣) .

وإلى هنا والكلام يبدو متسقا ومنسجما مع تخيلات الموقف وجوّه العام ، لكن بعض الروايات التاريخية تبدأ بعد ذلك فى تصوير الموقف بصورة أخطر وأبعد مما يحتمله ، فيورد الطبرى ومن نقل عنه ما يشير إلى أن معركة كلامية حامية اشتدت بين عمر بن الخطاب (من المهاجرين) ، والحباب بن المنذر بن الجموح (من الأنصار)، حيث تراشقا بسهام الكلمات الفظة ، وتطاولا كلاهما على الآخر إلى الدرجة

---

(١) من الآية ١٠٠ من سورة التوبة .
(٢) الطبرى ٣/ ٢٢١ ، نهاية الأرب ١٩ ، ٣٤ ، العواصم من القواصم ص٤٤
(٣) ينظر صحيح مسلم ج ١٢ ص ١٩٩ ، وصحيح البخارى ج ٦ ص ٧ النصوص التى تخص قريشا بالإمارة .

التى جعلت الحباب يهدد بإجلاء المهاجرين عن المدينة إن لم يـذعنوا لما يراه الأنصار ، وفوق هذا يقرر الحباب أنه سيُعيدها نارا مشـتعلة تلهب قلوب الفريقين وأبدانهم كما كانت فى الجاهلية ثم يتهدد الرجلان كلاهما بالقتل ، حتى يشق سيفُ الحباب أثير كلمات أبى بكر الرقيقـة العاقلة التى سادت الجو منذ لحظات !!

هذه الرواية التى سجلها الطبرى ، ونقلها عنه بعض من رووا هذا الحدث ، نقطع بانتفائها ، فالواقع لا يتيح لها فرصة الظهور ، إذ كيف يكون هذا الموقف المتشنج والملتهب بين صحابيين جليلـين لكلاهمـا سبقه ونصرته فى الإسلام ؟! أليس هذا عمر بن الخطاب الذى أعز الله به الدين ، ونزل على لسانه القرآن الكريم ، وبشره النبىﷺ بالجنة؟

وكذلك الحباب بن المنذر الذى أبلى فى سـبيل الله خيـر الـبلاء واجتهد رأيه فى غزوة بدر لصالح المسلمين ، حتى رأى النبىﷺ فـى رأيه صوابا فنزل عليه ؟

فإن قال قائل . إذن من أين جاء الطبرى بمفردات هذه الروايـة ؟ قلنا : إن تاريخ هذه الجلسة فى السقيفة لم يدون فى حينها ، وإنما دُون فيما بعد ، وقد تغيرت الظروف ، وجعلت الأحداث المسلمين ــ فيمـا بعد ــ ينقسمون وراء عدة اتجاهات ، وبخاصة بعـد أحـداث مقتـل الخليفة الثالث عثمان رضي الله عنه ثم ما تلا ذلك فى موقعتى الجمل وصفين فـى عهد الخليفة الرابع ، وما ترتب على كل ذلك من انتقال الإمـارة إلـى البيت الأموى ٠

وبعد كل هذا الوقت الطويل سُجل التاريخ برؤى جديدة ، وصـور متغايرة ، مما يجعل لسان الحال ذا تأثير مهم على التسجيل التـاريخى للأحداث السابقة ومن يدرى ، فلعل هذه الرواية قد حُكيت مـن قِبَـل المتعصبين ، بعدما تباعد الزمن بين الحدث وتاريخه ، فجاءت علـى هذه الصورة المشوهة التى تتنافى والجو العام الذى ساد المؤتمر فـى حينه ، وعليه فكيف نتمسك برواية جاوزت زمن الحدث بما يزيد على قرنين من الزمان دون أن نناقشها ونعلل لها ؟

ثم إن الطبرى قد أورد قبلها روايتين وبعدها روايتين لم تحـو أى منها هذه اللقطة المشوهة ، فلماذا نقف عند هذه الرواية بالذات ؟ ثم إذا كان الطبرى ــ وتلك طريقته ــ ينقل الروايات ولا يقف عندها بتعليل أو مناقشة فلماذا لم يحاول من نقلوا عنه الوقوف عند المشكل ومناقشته والتعليل له ؟

وقد نتج عن هذا أن حلا لبعض المستشرقين أن يتخذوا مما احتوته الرواية من الاختلاف بين عمر والحباب مدعاة للطعن على الصحابة[١] وإظهارهم بمظهر المتكالبين على حطام الدنيا ومناصـبها ، حتـى إذا وصلوا إلى تشكيك المسلمين فى صحابة النبىﷺ ، وأظهروا الرعيـل الأول بالمظهر التافه ، سَهُل عليهم أن يتناولوا كل واحد منهم على حدة بالطعن والتجريح ، ثم يقولون للمسلمين والعرب بعد ذلك : انظروا إلى أجدادكم وبناة مجدكم، فهكذا كانوا على جانب كبيـر مـن الحـرص

---

(١) ينظر فى ذلك تحليل قيم بعنوان (المستشرقون ومؤامرة الخلافة) للأسـتاذ الدكتور: عبدالفتاح شحاته فى كتابه : تاريخ الأمة العربية ص٢٨ ــ ٣٥ .

والطمع ، والتكالب على حطام الدنيا الحقيــر ، وهـــا هــم كبـــراؤهم وسادتهم : عمر والحباب وسعد بن عبادة يثيرون شغبا ويطعن بعضهم على بعض فى حمق وطيش فى الوقت الذى لم يُوار فيه جثمان رسول الله ﷺ بعد(١) .

وإذا استطاع الطاعنون على سلفنا وتاريخنا الإسلامى توصيل هذه الدسائس إلى عقول الأجيال اللاحقة ، سهل عليهم أن يهونوا من شـــأن كل عزيز وغال على نفوس المسلمين ، بل سهل لهم أن تكون طعنانهم فيما بعد موجهة إلى ذات المنهج الذى أرسى قواعــده للأمـــة نبيهـــا المعصوم ﷺ ، إذ لو صح المنهج لصحت نتائجه ، ولظهرت آثاره فى الجيل الذى عايش النبى وجالسه ، وتعلم بين يديه ، ويصـــبح بإمكـــان المشككين أن يتهموا الأمة جميعا بالتخلف وعدم النضوج ، وإثبـــات أن الرقى والحضارة من حق وصنع الغرب الملحد وحسب ٠

ولنقف مع هؤلاء الطاعنين وقفة سريعة نقول لهم : إذا كان هـــذا الذى تزعمون ، وإذا صحت روايات التشكيك التى تعتمدون عليها ، ألم يكن من المنطقى ــ حسـب ادعـــاءاتكم الديمقراطيـــة الحديثـــة ــ أن يتمخض هذا الصراع على السلطة والذى حُســم لصـــالح أبـــى بكـــر الصديق ، عن وجود عصبيات مناوئة لسلطان الخليفة ، تشغب عليـــه من أول لحظة ، وتظل تعمل على تقويض سلطانه لتفوز بالوثوب إلـــى قمة السلطة التى كان الصراع من أجلها ؟

---

(١) الدكتور : إبراهيم شعوط : سياسة الهدم فى التاريخ الإسلامى ٠

إذا كان هذا المنطق نتيجة حتمية لما يدعى هؤلاء ، ومن خلال تشدقهم بالحرية والدستورية ، والرأى والرأى الآخر ، فإنا لم نسمع عن شئ من هذه الفتن أو الثأرات فى عهد أبى بكر ، بله فى عهد عمر وعثمان .

وحتى لما طلب الأمويون الإمارة من عَلِىّ ـ فيما بعد ـ لم يطلبوها من منطق معارضة قديمة ، ولا بحق سابق ضُيع ، وإنما سعوا لأسباب استجدت وراقتهم ـ فيما بعد ـ أوَ يُمكن أن تموت الحرية الدستورية والمعارضة السياسية طيلة تلك الفترة ، بحيث لم يسجل التاريخ لها ولو موقفا ثوريا واحدا ؟

وأيضا لو سلمنا ـ جدلا ـ بصحة الرواية التى تقرر هذا الخلاف بين صحابيين جليلين (عمر والحباب)، وما روى عنهما من الاختلاف والعصبية لكان ذلك بعينه فى صالح الديمقراطية التى يقررها الإسلام ، إذ أنه من خلال الرواية يتبين لنا أن كلاهما قد طرح فكره عن الخلافة وعززه بما يؤيده على مرأى ومسمع من جميع الحضور ، فى إطار فردى لم يتسع لأن ينتج عنه تَكَوّن أحزاب تعارض بعضها البعض [١]، وما كان ذلك إلا خلافا فرديا امتثل طرفاه فى النهاية لما فيه صالح الأمة العام ، بدليل أن الحباب بن المنذر نفسه لم يرفض بيعة أبى بكر،

---

(١) ولعله الآن فقط قد وجد فى النظام الغربى ما يحاكى هذا التناظر بين عمر والحباب ، فنرى هذه الأيام مناظرات شعبية تليفزيونية بين المرشحين لرئاسة الولايات المتحدة الأمريكية ، وهم يعدون ذلك أرقى درجات الحرية والديمقراطية ويتغنون به.

ولم يخرج على إجماع الأمة ، فإذا كان قد قام خلاف بين اثنين من فضلاء الصحابة ، فما كان إلا اختلافا من أجل الإتفاق ٠

وفوق كل ما سبق بيانه ، فإن الأنصار لم يكونوا قد قطعوا بأن الخلافة من حقهم فقط ، وإنما كان موقفهم الأول ، واختيارهم لسعد ابن عبادة مجرد تصور طارئ تهيأت له نفوسهم لحظة سماعهم بوفاة النبى ﷺ والدليل على ذلك يتمثل فى أمرين :

الأول : أن إجابة الأنصار لسعد بن عبادة لم تكن صادرة عن اعتقاد جازم فى أحقيتهم للأمر من دون المهاجرين ، وإلا لبايعوا سعدا[١] ، واستقروا على أن الخليفة منهم، ولم يرضوا عن ذلك بديلا ٠

والأمر الثانى : أن الأنصار ترادوا الكلام فيما بينهم ، واحتملوا معارضة المهاجرين ، ومطالبتهم لهم بالخلافة ، وقال بعضهم لبعض: "فإن أبت مهاجرة قريش فقالوا: نحن المهاجرون، وصحابة رسول الله الأولين، ونحن عشيرته وأولياؤه، فعلام تنازعوننا هذا الأمر بعده؟!"[٢].

فإذا كانت مخيلة الأنصار قد لمحت ما يعتمد عليه معارضوهم ، فإنهم أيضا قد اقترحوا الرد عليه ، وهيأوا من الحلول ما يرضى الطرفين، وقالوا : نقول للمهاجرين إذاً : " منا أمير ومنكم أمير ، ولن نرضى بدون هذا الأمر أبدا"[٣].

---

(١) الدكتور : عبدالفتاح شحاتة : تاريخ الأمة العربية ص ١٨ ٠
(٢) تاريخ الطبرى ٣ / ٢١٨ ، ٢١٩ ، ونفس المعنى لابن خلدون فى المقدمة ص ١٩٤ ، (فصل فى اختلاف الأمة فى حكم منصب الخلافة وشروطه) ٠
(٣) المصدران السابقان ٠

وكأن سعد بن عبادة قد رأى عدم الجزم الذى ألمحنا إليه ، وازداد يقينا به ، فرد على مَن قال باقتسام الأمرة بين الفريقين بقوله : " هــذا أول الوهن" ، أى بداية الضعف والفرقة إذا ما اقتُسمت الإمــرة بــين الفريقين ٠

ويجب على الباحث المدقق أن يقف عند تصور الأنصار لأحقيــة المهاجرين ، أو (المعارضين) إن جاز أن نسميهم بهذا الاسم فى هذه اللحظة بالذات ، إذ لو نقلنا هذا المشهد وقسناه بالمقاييس الديمقراطيــة العصرية فلن نجد أن الأغلبية المنفردة بالموقف تحسب حسابا للأقليــة المعارضة وهى غائبة، وإذا حدث أن حسبت لها حسابا فإنه لن يصــل إلى مستوى إشراكها فى الأمر بالتساوى معهــا . ومــا ذاك ــ فــى تقديرى ــ إلا لأن الصحابة أنصارا ومهاجرين ، أغلبية وأقليــة ، مــا اتخذوا من قرار ، ولا دبروا من أمر إلا وينطلق من منظور إســلامى عام . هدفه الأسمى رسم السياسة العامة للدولــة الإســلامية ، وهــو منظور سام لم تتداخل فيه الأهواء ولا النزعات الخاصــة أو الحزبيــة ولم يكن وراءه من هدف شخصى أو مطمع دنيوى، كما هــو الحــال الآن ــ فيما يسمى بالديمقراطية وحرية الرأى ٠

اتفاق الكلمة :

نعود إلى الكلمات التى أنقاها الصديقﷺ فى هذا الجمع ، والتــى هدأت من روع الجميع ، وجعلتهم يدركون أهمية الموقف ، وخطــورة القرار على صالح الأمة فى ذلك الظرف العصيب ، وتأكد للجميع سمو الهدف ، ونبل الغاية ، إلى جانب أن أبا بكر لم يُقْص الأنصــار كليــة

بل أعطاهم ما يتيح لهم المشاركة فى إدارة شئون الدولة ، وسياسة الأمور ، حين قال : " ... فنحن الأمراء ، وانتم الوزراء ، لا تفتاتون بمشورة ، ولا تقضى دونكم الأمور "[١].

ثم يقف أبو عبيدة بن الجراح فى هذه اللحظات الحرجة ، ويقول لجموع الأنصار : " يا معشر الأنصار . إنكم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدل وغير "[٢] ، وهى كلمات قليلة إلا أنها ـــ والحال هذه ـــ تَعْدل خطبا طويلة ، وفى تقديرى أنها تعدل كل ما تكلم به أبو بكر ﷺ .

خرجت هذه الكلمات الوجيزة على لسان أبى عبيدة فكانت كالبلسم الشافى ، ولاقت قبولا واستحسانا فى نفوس نفر كبير من الأنصار أَوْسِهم وخزرجهم ، حتى أن أحد أشرافهم وهو بشير بن سعد الخزرجى[٣]، تعتمل فى نفسه هذه الكلمات ، وينفعل بها ، فيقف مخاطبا الأنصار بقوله : " إنا والله وإن كنا أولى فضيلة فى جهاد المشركين ، وسابقة فى هذا الدين ، وما أردنا به إلا رضا ربنا وطاعة نبينا ، والكدح لأنفسنا ، فما ينبغى أن نستطيل على الناس بذلك، ولا نبتغى به من الدنيا عرضا ، فإن الله ولى المنة علينا بذلك ألا أن محمداﷺ من قريش ، وقومه أحق به وأولى ، وأيم الله لا يرانى الله أنازعهم هذا الأمر أبدا ، فاتقوا الله ولا تنازعوهم ولا تخالفوهم "[٤].

(١) تاريخ الطبرى جـ٣ ص ٢٢٠ ، نهاية الأرب جـ ١٩ ، ص ٣٤ .
(٢) المصدران السابقان .
(٣) الدكتور : عبد الفتاح شحاته : تاريخ الأمة العربية ص ٢١ .
(٤) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٦٩ ، ٧٠ .

وكأن هذه الكلمات لبشير بن سعد كانت بمثابة جماع رأى الأنصار، والحد الفاصل فى المسألة ، إذ سكن الأنصار ، ولم يعقبوا على ما قاله . مما دعا أبا بكر إلى أن يدفع إلى الأنصار بعمر وأبى عبيدة ، ويأخذ بيد كليهما قائلا للأنصار : " أيهما شئتم فبايعوا"[١] فقال عمر وأبو عبيدة ، " لا والله . لا نتول هذا الأمر عليك ...".

ويلزم أن نقف هنا مليا ، إزاء هذا الأدب الرفيع ، والزهد فى الإمارة والإيثار الذى يعبق به جو المكان ، إذ كان يُظن أن أبا بكر وقد قال ما قال فى إقناع الأنصار بالتخلى عن الإمارة للقرشيين ، وتسيُّد الموقف ، فهو المرشح التلقائى الذى لا ينتظر ترشيح غيره له ، ولا تنتظر تزكيته من أحد ، ويحق له وزمام الموقف بيده أن يعلن نفسه خليفة لرسول الله ﷺ بدون انتظار .

إلا أن الصديق﷛ وهذا خُلقه ، يترفع عن هذا ، ويرشح غيره، غير راغب فى الإمارة التى يدرك خطورة تبعاتها ، ولانَهَّاز للفرص، أيمكن لأىٍّ من الساسة أو طالبى الصدارة اليوم وعلى مستوى الدنيا بأسرها أن يتاح له مثل هذه الفرصة ثم يُقصيها إلى غيره ؟! إن ذلك البتة مستحيل فى عالم تعشق فيه الإمرة ، ويُستبق إليها ، ويُضحَّى من أجلها ، وقد كشف الصديق﷛ عن هذا الأمر فيما يرويه السيوطى[٢] عن موسى بن عقبة فى مغازيه ، والحاكم عن عبدالرحمن بن عوف

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٣ ص ٢٢١ ، نهاية الأرب جـ١٩ ص ٣٥ ، الذهبى : تاريخ الإسلام جـ٣ ص ١٠٢ ، السيوطى تاريخ الخلفاء ص ٦٨ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ٦٩ ــ ٧٠ .

قال : خطب أبو بكر فقال : " والله ما كنت حريصا على الإمارة يومــا ولا ليلة قط ، ولا كنت راغبا فيها ، ولا سألتها الله فى سر ولا علانية ولكنى أشفقت من الفتنة ، ومالى فى الإمارة من راحة ، لقد قُلدت أمرا عظيما ، مالى به طاقة ولا يد إلا بتقوية الله " .

ثم لننظر كذلك إلى هذين الرجلين الـــذَيْن يثــق أبــو بكــر فـــى صلاحيتهما ويدعو القوم إلى اختيار أحدهما، لِمَ لَمْ ينتهزانها فرصـــة[١] وُيقصيان أبا بكر ، ليعلتى أحدُهما العرش، ويجعل صاحبه مشيرا لـــه ووزيرا؟! ، إنه الأدب الإسلامى الرفيع ، والتربية النبوية التى تُطهــر الأنفس وتنقى السرائر ، فلا تجد النفس معها مجالا لضعف أو حيــادا عن حق ، أو اتباعا لهوى ، ومن ثم يقف الرجلان ليعزز ا ما قالاه من قبل، حين قالا لأبىبكر: "والله لا نَتولَّ هذا الأمر عليك" "فإنك أفضـــل المهاجرين ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، وخليفة رسول الله ﷺ على الصلاة ، والصلاة أفضل دين المسلمين ، فمن ذا ينبغى له أن يتقدمك ، أو يتولى هذا الأمر عليك! أبسط يدك نبايعك"[٢] .

والآن يمكن أن نجيب على تساؤل قد يدور بعقول البعض هـــو : كيف يترك رسول الله ﷺ الأمة دون أن يعين من يقوم بأمرهـــا مـــن بعده؟ والإجابة تأتى من ملمحين :

---

(١) لعل فى هذه الصور المضيئة من الإيثار الغامر ما يُجلى الموقف أمام مـــن يقولون بتآمر المهاجرين الثلاثه على الخلافة ، ومن أشهر مَن يفترى هـــذا: الفرنسى هنرى لامانس الذى قرأ الأحداث بما يُرضى نشوته لا بمـــا يجلـــى الحقيقة التى لا تتكرر على مدى الأزمان .

(٢) تاريخ الطبرى، جـــ٣ ص٢٢١، الدكتور / عبدالفتاح شحاته ، تاريخ الأمـــة العربية ص٢٢ .

الأول : أنه ﷺ ترك صحابته الأجلاء الـذين رأينـا صـورهم ومواقفهم الرائعة ، والذين يصلح أيُّ منهم للقيام بالمهمة ، مـا دامـوا جميعا يقفون عند حدود كتاب الله وسنة نبيه ٠

والملمح الثانى : أن من يتتبـع مناقـب الصـديق[1] وأخلاقـه وموقعه من رسول الله ﷺ ، يدرك أن هذا كله كان بمثابة ترشيح نبوى لأبى بكر دون أن ينص على ذلك صراحة ولم يبق للمسلمين فى هـذا الموقف إلا أن يتدارسوا كل هذا ، فى جو من الود الصادق والفطنـة الإيمانية التى تنتج نوعا من التحرى والتدقيق فى شخص المسـتخلف وهذا ما ألمح إليه الصحابيان الجليلان عمر وأبى عبيدة حينما قدّما أبا بكر وذكرا مآثره . فكأن ما أراده المصطفى ﷺ هو بعينه ما كان٠

وعلى إثر ما تقدم كان بشير بن سـعد الخزرجـى[2] ، أول مـن استبق لمبايعة أبى بكر ، ثم تلاه عمر وأبو عبيدة ، ثم تتابع الناس من كل جانب يستبقون للبيعة ، حتى كادوا ـ فى تكاثرهم عليها ـ يطئون سعد بن عبادة ، فأُشير إليهم أن يتفادوه حتى لا يصاب بسوء ٠

وعلى الرغم من تسابق الناس وتزاحمهم على البيعة باقتناع ويقين فى جو من التوافق الاجتماعى والخلقى الرائع،فإنه يحلو لبعض الطاعنين والحاقدين وأصحاب الهوى فيما بعد أن يدسوا على هذه البيعة ما يشوه

---

(١) ينظر : صحيح البخارى جـ ٦ ص ٧٩ وما بعدها ، صحيح مسلم جـ١٥ ص١٤٩ وما بعدها ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٦٩ وما بعدها فى مناقب أبى بكر ﷺ ٠

(٢) من أبناء عمومة سعد بن عبادة المرشح من قبل ٠

صورتها ، فيفندون حججا وبراهين على أن نفرا مـن المسـلمين لـم يبايعوا ، وهم : سعد بن عبادة ، وعليٌّ والزبير وطلحة ، غير أن هذه الأفانيد تعجز عن أن تحقق لهم ما يرمون إليه، وذلك لأمرين اثنين :

أولهما:أنه قد روى فى نفس المصادر[١]التى يعتمدون عليها أنهم قد بايعوا فى نفس الموقف،أو على الأقل فى اليوم الثانى فى البيعة العامة.

وثانيهما : أنه حتى لو لَمْ يبايع هؤلاء الثلاثـة (فرضـاً) فـإن الإجماع لا ينكسر بعدم مبايعتهم ، ففى الجمعيات الوطنية والبرلمانات والمجالس النيابية الحديثة تصح الجلسة بحضور ثلثى الأعضاء ، كمـا أنهم يأخذون بأغلبية الأصوات حتى ولو كانت بنسبة ٥١% ، فكيـف يُجوِّز هؤلاء الطاعنون التغاضى عن اعتراض ٤٩% ثم يُلحـون فـى مسألة تخلُّف نفر ثلاثة من أمة ، أو من مجموع أهل المدينـة (علـى افتراض صحة ما يروون) ؟!

مع أنا إذا تحرينا الواقع ساعة اجتماع السـقيفة نُـدرك أن عليـا والزبير كانا من أهم المشتغلين بتجهيز جثمان النبىﷺ ، فلم يحضـرا الاجتماع ، وكان سعد بن عبادة مريضا مزملا فى ثيابه لا يقوى علـى المزاحمة للبيعة فى حينها ، أو لعله ــ إن أخذنا فى الاعتبـار حالتـه النفسية ــ وهو الذى كان على وشك الإمارة لعله كَبَشَر عـادى تـأثر بذلك ، وكان له فى نفسه أثر ، فلم يبايع لتوِّه ، فيكون فى ذلك عذره ٠

---

(١) تاريخ الطبرى جــ٣ ص ٢٢٣ ، البداية والنهاية جــ٥ ص ٢٤٩ ، تـاريخ الخلفاء للسيوطى ص ٦٩ ٠

كما أن امتناع هذا المرشح السابق عن البيعة لم يُبْن عليه نشوء معارضة جديدة ، أو تكوُّن حزب سياسى مناوئ للخليفة ، وإنما كان كما أسلفنا ، مسألة فردية لا ترقى إلى مرتبة التنازع أو التحزب على ما رآه أهل الحل والعقد والدليل على ذلك يأتى من نفس رواية الطبرى التى بنى عليها المشككون وجهتهم ، فها هو بشير بن سعد الخزرجى يقول لأبى بكر وعمر عن سعد : "إنه لجَّ وأبى ، وليس بمبايعكم حتى يُقتل ، وليس بمقتول حتى يقتل معه ولده وأهل بيته وطائفة من عشيرته ، فاتركوه فليس تَركه بضاركم ، إنما هو رجل واحد ، فتركوه وقبلوا مشورة بشير بن سعد " [١] .

وغاية ما يمكن قوله فى هذا الأمر : أن الذين يبنون على عدم مبايعة هؤلاء الثلاثة مزاعمهم ، ويعدونها نقاط ضعف فى البيعة ، إنما هم أحد فريقين ·

إما هم طاعنون حاقدون على الإسلام ، وهم من غير أهله يريدون تشويه الصور الجميلة والمواقف المحمودة فيه ، وإما هم أولئك الذين تشيعوا من بعدُ وأرادوا أن يصنعوا لهم تاريخا،أو يُعدوا صياغته حسبما يوافق ما يذهبون إليه ، وعلى كل حال فهذه الأمور قد عُولجت العلاج الطيب الشافى فى مواضعها ، وتناولها كثير من المؤرخين المنصفين،بما لا يدع لنا ههنا مجالا للاستطراد فى مناقشتها[٢].

---

(١) تاريخ الطبرى جـ٣ ص ٢٢٢ ·

(٢) ينظر : مروج الذهب جـ١ ص ٦٠٩ ، البداية والنهاية جـ٥ ص٢٤٩ ، الذهبى: تاريخ الإسلام جـ٣ ص ٨، ٩، العقاد: عبقرية الصديق ص١٦٤=

البيعة العامة :

سُميت بيعة السقيفة فى اليوم الأول " بالبيعة الخاصة" ، لاقتصارها على الأنصار وثلاثة من المهاجرين ، فلما كان الغد (الثلاثاء) انطلق أبو بكر وعمر إلى المسجد النبوى ، واجتمع المسلمون ، وقام عمر فى الناس خطيبا ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم اعتذر للناس عن مقالته لهم بالأمس(١) ، وقال : " إن الله قد أبقى فيكم كتابه الذى هو به هدى رسول الله ، فإن اعتصمتم به هداكم الله لما كان هداه الله له ، وإن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله ﷺ ، وثانى اثنين إذ هما فى الغار ، فقوموا فبايعوه ، فبايع الناس بيعة العامة بعد بيعة السقيفة"(٢) .

دستور الحكم الصالح :

بعد أن بايع الناس بيعة العامة قام أبو بكر ﷺ وألقى على المسلمين خطابا تاريخيا ، أبان فيه منهجه فى سياسة أمور الدولة ، وضمنه دستورا خالدا ظل وما يزال نبراسا لكل من يريد الحكم الصالح والسيرة الحسنة . فكان مما قاله بعد أن حمد الله وأثنى عليه : " أما بعد، أيها الناس . فإنى قد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى ، الصدق أمانة ، والكذب خيانة والضعيف فيكم قوى عندى حتى أزيح علته إن شاء الله ، والقوى فيكم

=وما بعدها وينظر موضوع : المستشرقون ومؤامرة الخلافة فى كتاب "تاريخ الأمة العربية" للأستاذ الدكتور : عبد الفتاح شحاتة .

(١) حيث كان قال لهم : إن محمدا ما مات ، ومن قال ذلك ضربت عنقه .

(٢) البداية والنهاية جـ٥ ص ٢٤٨ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٦٩ .

ضعيف عندى حتى أخذ الحق منه إن شاء الله ، لا يدع قوم الجهاد فى سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل ، ولا تشيع الفاحشة فى قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء ، أطيعونى ما أطعت الله ورسوله ، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لى عليكم ، قوموا إلى صلاتكم[١] يرحمكم الله[٢].

وبهذا صار أبو بكرﷺ خليفة عن رسول الله ﷺ ونشأ نظام الخلافة[٣] الأسمى لأول مرة فى تاريخ البشرية ، تلك الخلافة التى هى: " حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعى فى مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها ، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة ، فهى فى الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع فى حراسة الدين وسياسة الدنيا به"[٤] .

ويتحتم على دارس التاريخ الإسلامى ــ كى يفيد من دراسته أن يقف مليا أمام هذه العبارات والقواعد الراسخة والمعبرة عن منهج الخليفة الأول ، كى يأخذ منها الأسوة والعبرة ، ويشاهد عن قرب ذلك الصحابى الذى لم يتخرج من مدرسة سياسية ، أو أكاديمية عسكرية أو دبلوماسية ، غاية الأمر أنه حذق الفهم وأجاد الإفادة من تأسيه واقتدائه بمحمد ﷺ ، ذلكم الصديق يضع فى أول خطاب سياسى دستورا له وللرعية ، لا يتيح لنفسه فيه أن يكون صفوة من دون قومه ، أو متميزا

(١) أى الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم ودفنه .
(٢) البداية والنهاية جـ٥ ص ٢٤٨ ، السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٦٩ .
(٣) لمزيد من التعريف بالخلافة ينظر : مقدمة ابن خلدون ص ١٩٠ وما بعدها، الدكتور: على حسن الخربوطلى غروب الخلافة الإسلامية ص ٣ ــ ٢٢ .
(٤) مقدمة ابن خلدون (فصل فى معنى الإمامة والخلافة) ص ١٩١ .

عليهم ، بل هو كأحدهم يطلب منهم معونتهم له إن أصاب ، ومقاومتهم إياه إن أخطأ ، إنه بهذه العبارة الخالدة يجعل محاسبة الشعب للحـــاكم مبدءا أساسيا من مبادئ الحكم الإسلامى الصالح ، وحكمهم له أو عليه دستورا واجب النفاذ ٠

" إن هذا المبدأ ــ مراقبة الشعب لحاكمه ومحاسبته ــ مبدأ تتباهى به الديمقراطيات الحديثة ، وتحسب أنه من بِدْع العصر الحديث! ومـــا عرفوا أنه من وضع الصديق وأنه مقرره فى أول بيان له إلى الأمـــة منذ أكثر من أربعة عشر قرنا"[١] ، ثم يقرر مبدأ آخر مهم حين يقول : " الصدق أمانة ، والكذب خيانة" ليؤكد أنه عند قوله ، ولن يكون كغيره من الحكام الذين يُلقون إلى شعوبهم من الوعود والآمال ما يبلـــغ حـــد الإجلال ، ثم إذا ملكوا المنصب نسوا ما قالوا ، وتبرءوا ممـــا كـــانوا وعدوا به ٠

ثم يُنصِّب الصديق ﷺ نفسه سندا وناصرا لكل مستضعف غُمــط حقه حتى يسترده له ، ونِدًّا لا يضارع ضد كل قوى يظلم غيره حتـــى يسترد منه حق المظلوم ، حيث إن الأمة الإسلامية كانت مقبلة علـــى عهد جديد ، ومهمة حتمية فى سبيل نشر الدعوة والجهاد والحث عليه، حتى يرضى الله ورسوله ، وتعم كلمة التوحيد أرجاء الدنيا ٠

ويحرص على سلامة الأمة وطهارتها ونقاء أنسابها ، فيحـــذرهم من إتيان الفاحشة (الزنا) ، فإنها إذا تفشت فى أمة دنست أحســـابها،

(١) الدكتور: عبد المقصود نصار: أول بيان أساسى للخلافة فى الإسلام مقـــال منشور فى مجلة الأزهر، رمضان ١٤١١هـ/ أبريل ١٩٩١م، ص١٠٠٦ ٠

وقطعت أوصالها، وأصابهم الله عزوجل بالبلايا والطواعين التى تستعصى على العلاج ، وأخيرا يختتم الصديق بيانه الدستورى بتقرير أمرٍ مهم جدا وهو أن إمام الأمة يقوم بتلك المهمة قيام وجوب طاعة لله ولرسوله ، فإذا حاد عن هذا السبيل انتقضت عليه الامة ، ووقفت فى وجهه ، وشقت عليه عصا الطاعة ، لأنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق سبحانه .

وهكذا لم يكن حكم أبى بكر " أتوقراطيا " ـ وهى حكومة الفرد المستبد ـ لأنه مبنىٌ على شورى . ولم يكن " ثيوقراطيا " وهى الحكومة التى يدعى فيها الحاكم صفة التقديس والعصمة من الخطأ لأن القرآن الكريم يُعلِّم المؤمنين أن النبى بشر مثلهم غير أنه يوحى إليه ، كما أنه يبطل الكهانة والوساطة بين الإنسان وربه ، وكان أبوبكر ﷺ يدرك هذا تماما ، فلما قيل له :يا خليفة الله . أنكر ذلك[1]وقال : إنما أنا خليفة رسول الله ، إذًا لم تكن حكومة أبى بكر نظاماً من نظم الحكم المعيبة التى عرفها العالم قديما وحديثا فيصح لنا أن نسميها بحكومة " الديمقراطية الإسلامية"[2].

الديمقراطية الإسلامية والديمقراطية الحديثة :

إذا كنا نسلم بأن هذا الذى حدث فى مؤتمر السقيفة ما هو إلا ضرب صريح وواضح من أهم ضروب الديمقراطية وأشكالها، فلنقف هنا مليا لنتبين أوجه العلاقة بين أحداث المؤتمر وبين هذا الاسم

(١) مقدمة ابن خلدون ، صـ ١٩١ .

(٢) الدكتور : عبد الفتاح على شحاتة ، تاريخ الأمة العربية ص ٢٨ .

المستحدث "الديمقراطية" الذى لم تسمع البشرية عنه إلا فى هذا القـرن الذى تعيشه الآن.

فالديمقراطية كلمة مركبة من كلمتين "ديمـو" بمعنـى الشـعب، و"كراتوس" بمعنى السلطة" فيكون تمام معناهما أن "الشعب هو مصدر السلطة" والكلمتان "ديمو" و"كراتوس" إغريقيتان، تولدتا بين مجموعـة من قبائل الإغريق التى استقرت ببلاد اليونان فى مدن معزولـة عـن بعضها البعض، فحاولت كل جماعة فى مدينتها أن تضع نظاما للحكـم العادل، من أوليات هذا النظام أن يختار الصفوة من أهل المدينة رئيسا لهم لمدة عام، ثم إذا ما انقضى العام اختاروا غيره، وهكذا .

وهذا يدل على أن ادارة الحكم فى البلاد كانت نتيجـة لانتخـاب مباشر من الشعب كله ، وأن السلطة كانت مركزة فى أيدى الشـعب، يختار من يشاء فى كل عام ، وهـذا هـو الحكـم الـديمقراطى فـى نظرهم[١].

ولم يمنع هذا النوع من الحكم أن تقوم أنواع أخرى، كأن يحكـم بعض المدن رجل واحد، أو عدة رجال أقوياء يتعاونون جميعـا فـى الادارة، مما نتج عنه تعدد الدساتير لكل مدينـة، وكثـرت الدسـاتير وتعددت ، وقامت مشاكل وفتن وحروب، وظهر الفلاسـفة بأفكـارهم التى تهدف إلى خدمة أوطانهم وأممهـم، ومحاولـة صـياغة الأطـر الدستورية بطريقة تخدم هذه الغاية .

---

(١) محمد على علوبة باشا : الإسلام والديمقراطية ص٧ .

وإزاء هذا السعى من الفلاسفة، فقد رصدوا عدة أنواع وأساليب للحكم، وخلصوا إلى أن أنجحها هو الحكم الديمقراطى، أى الذى تكون السلطة فيه للشعب، وكانت هذه خلاصة ما توصل إليه أرسطو طاليس، ثالث فلاسفة اليونان، والذى يرى وجوب احترام ارادة الشعب النزيه المفكر، لتكون خير موجه لمن يختار من الحكام .

ومع ذلك، فإن الديمقراطية الإغريقية ما كانت إلا حرية مكفولة للأحرار اليونانيين دون غيرهم (إذ كان الاسترقاق يضرب أطنابه فى طول البلاد وعرضها)، فهى ديمقراطية محلية، وليست ديمقراطية انسانية بالمعنى الذى يجب أن نفهمهما به اليوم[1]، ومن ثم فقد ضعفت شيئا فشيئا، وساد الطغاة والمفسدون فيما بعد حينما اتسعت أرجاء الإمبراطورية لأن الحكم الصالح لا يرتكز فى الحقيقة على النظم وحدهما، كما يرتكز على الفضلة والأخلاق ، إذ تقوم الأمم على قوة الخلق والتدين أكثر مما تقوم على قوة النظم وشدة الأحكام.

كما أن نظام الحكم فى أمة من الأمم لا يقف عند الفكرة العامة من الحكم .. فردى أم نيابى، ملكى أم جمهورى، ديمقراطى أم ديكتاتورى بل هو يتناول أمورا كثيرة تتصل بالفكرة العامة للحكم من قريب أو من بعيد، يتناول النظام الاقتصادى، وللنظام الأخلاقى، والنظام الاجتماعى، وألوانا أخرى من النظم تتعلق بالسلم والحرب، أو الدين والعلم ، وبغير ذلك من تفاصيل لا يتم تصور نظام الحكم إلا بتصورها كاملة فى حال حركتها، وفى حال استقرارها[2].

---

(١) المرجع السابق ص١٣ .

(٢) الدكتور : محمد حسين هيكل : الحكومة الإسلامية ص٢٧ .

وهكذا فإن ما سمى بالديمقراطية الإغريقية قديما قد افتقدت فيه كل الجوانب الإيجابية التى ينشأ عنها نظام حكم صالح، واهتمت فقط بالشكل الذى يتم به اختيار الحاكم. ذلك الذى لا يرضى إلا الذين قاموا باختياره ليتمشى مع مصالحهم وأفكارهم ٠

ثم ظلت الشعوب من حينها تلهث وراء هذا المصطلح "الحكم الصالح" — ونتردى فى عثرات جسام لا تجد من يقيلها منها، وتمثل ذلك جليا فى تلك الحروب الضروس التى استعرت نيرانها بين القوميان والممالك، والغزو والتسلط الذى كان سنة للأقوياء على الضعفاء، ثم انتحارهم فى مسألة الرق وعبودية الإنسان، وأقنان الأرض والمصانع والموانئ٠

إلى أن أفاقت شعوب الأرض من سباتها، ونفضت سرابيل ظلام تلك العصور — فيما بعد — لتبهر ببزوغ فجر النظام العالمى الجديد لأول مرة فى تاريخ البشرية، ذلك هو نظام الحكم الإسلامى الذى ساد الدنيا، ورحبت به معظم الشعوب التى كانت قد استعبدت دينيا وبدنيا ، ذلك النظام الذى أرسى قواعده وبينه للناس جميعا سيدنا محمد ﷺ، وصارت أسسه منهاجا ونبراسا لكل من يريد الحرية والأمن والمساواة، وحدث احتكاك وتجاور بين هذا النظام وكافة الأنظمة المتخلفة والمستبدة فأفادوا منه، ونقلوا أهم معالمه، ثم أخذوا يدعون أنهم صانعوا الحرية، ومؤسسوا قواعد الديمقراطية ٠

ومن ثم نشأ الإدعاء الديمقراطى الغربى، واعتمد علـى اعتقـاد أصبح بدهية تاريخية، وهو أن الديمقراطية الغربية قد تطـورت عبـر أربعة قرون من الارتقاء العشوى فى المجتمع السياسى الأوربى . بدءا من "الماجناكارتا" ـ "النظام الدستورى فى بريطانيا" ـ فـى القـرن السادس عشر ، وحركة التنوير، مرورا بحركـات فكريـة وسياسـية كبرى، وبخاصة الحركة الدستورية، وحركة العقد الاجتماعى، والقانون الطبيعى، والحركة المياقية والليبراليـة، ثـم الحركـات الاشـتراكية الطوباوية والسندكالية والفوضوية، ثم الاشتراكية العلميـة والليبراليـة الجديدة، والعقد الجديد، ودولة الرفاهة والفكر الكينزى .. الخ[1].

ورغم كل هذه المساعى من أجل الديمقراطية، لم يفلح المجتمـع العربى فى تحقيق مبتغاه، وما كانت كل هذه المسـاعى إلا محـاولات مستمرة للحد من تسلط الكنيسة ورجال الدين، أو لتوسيع نفوذ الطبقـة العليا فى المجتمع[2]، أو لإتاحة الفرصة ـ أحيانا ـ لطبقة البرجوازية أو البروليتاريا للوصول إلى الحكم وفرض ذاتها على الواقع السياسـى فى المجتمع ، ومع كل هذا لم توجد الديمقراطية الحقيقية التى زعموها فى كل تلك العصور "وأتى على الأمم الأوربية حين من الدهر طويـل اشتدت فيه المظالم ، وعمت المفاسـد، وكثـر الغاصـبون، وقاسـت الشعوب أهوالا من الظلم والاستبداد، فكان كل مـن قـدر علـى بلـد

---

(١) الدكتور: محمد السيد سعيد: الديمقراطية وتجاويف الخطاب الـديمقراطى ، ص٥٧ .

(٢) الدكتور: لويس عوض: تاريخ الفكر المصرى الحديث ص٩٦ .

اغتصبه، وسخر أممه للذاته ومطامعه، فكانت الإقطاعيـات، وكانـت الملوك وأشباه الملوك والأمراء، ولم تر الشعوب فى ذلك العصر سوى الموت الفقر والجهل والاعتداءات"[١].

ويصبح القول بأن التجربة الديمقراطية قد شغلت الغرب أربعة أو خمسة قرون من التطور العضوى الارتقائى زعما باطلا "لأننا لا نجـد سندا حقيقيا للقول بأن الديمقراطية الأوربية قد تطـورت عبـر هـذه القرون كلها ... بل أننا نستطيع أن نؤكد أن الديمقراطية التى نعرفهـا فى أوربا وأمريكا اليوم تنتسب فى الحقيقة إلى ما بعد الحرب العالميـة الثانية مباشرة أكثر بكثير مما تنتسب لما قبلها "[٢].

موازنة :

بعد هذا التصور السريع عن المحاولات الديمقراطيـة الغربيـة يمكن أن نتبين فى أى من الجانبين كان السبق الديمقراطى السليم ، فى مؤتمر السقيفة، الذى تكاثر عليه الطاعنون ، أم فى المحاولات الآيسـة لدى الغرب، والتى لم تؤت ثمارا إلا بعد أن طحنت فى سبيلها أجيالا، وأهدرت من السنين قرونا؟ وما أكثر ما كانت ـــ فى أغلب المحاولات ـــ تولد مبتسرة غير كاملة النمو، إذا جاز لنا أن نعقد هذه المقارنة فإنا نحدد عدة ملحوظات أساسية نناقشها لنخلص منها إلى ما نعتقده يقينا.

---

(١) محمد على علوبة باشا: الإسلام والديمقراطية ص١٤ .

(٢) الدكتور : محمد السيد سعيد : الديمقراطية وتجاويف الخطاب الـديمقراطى ص٥٩ .

الملحوظة الأولى:

(الإعداد للمؤتمر) : فإنه لم تتح لجمهور المسلمين فـــى المدينـــة المنورة الفرصة للدعوة إلى المؤتمر، وإنمـــا كانـــت فكـــرة اجتمـــاع الأنصار، ولحوق المهاجرين الثلاثة بهم بنت اللحظة ، ووليدة الموقف، وهذا فى حد ذاته كاف لإجهاض أية محاولة للتلاقى والاتفـــاق علـــى رأى، واتخاذ قرار حاسم ، (هذا من الوجهة العصرية، وكما هو الحال فى عقد المؤتمرات والإعداد لها والدعوة إليها)٠

ففى فرنسا ــ مثلا ــ حين اشتدت الأزمـــة الماليـــة، وتعاقبـــت الوزارات وتعددت فى محاولة لإصلاحها، فشلت جميعها، ولم يبق إلا علاج واحد لم يجرب بعد، ألحت كل الجوانب على الملـــك بتجربتـــه، وهو دعوة مجلس طبقات الأمة للانعقاد ومحاولة الإصـــلاح، ورغـــم مساس الحاجة إلى ذلك، فإن الملك فى الثامن من أغسطس ١٧٨٨م(١) قام بدعوة المجلس للانعقاد فى العالم التالى !

واجتمع المجلس فى قصر الفرساى (مايو ١٧٨٩م)، ووقع ممثلوا طبقة العامة تحت تأثير عقلية السوقة، إذ كان الاجتماع فى وقت هياج شديد وآمال عريضة، وعقدوا النية من بادئ الأمر علـــى أن يمنحـــوا فرنسا نظما وهيئات تكون موضع حسد العالم لها، وأنموذجـــا لســـائر البلدان، ثم أعلنوا فيما بعد (١٧ يونية) أنهم يكونون "الجمعية الوطنية"، كما أقسموا ألا ينفضوا حتى يضعوا دستورا لفرنسا(٢)٠

---

(١) هـ . أ . ل . فشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث ص٩ ٠

(٢) المرجع السابق ص١١، نجيب عبدالمسيح : الثورة الفرنسية ونابليون ص٩

ولم تفلح الجمعية الوطنية فى تحقيق ما اجتمعت من أجله، لأنهـــا اجتمعت وسط غوغاء الشعب، وفى قاعات مفتوحة فى قصر الفرساى، إضافة إلى أن عظم الأعداد المشاركة فيها قد ســـاعد علـــى تعطيـــل أعمالها، ثم إن الملك ـ (لويس الســـادس عشـــر) ــــ عـــاد فتنكـــر الديمقراطية، واستهوته سياسة القوة والبطش ، فكـــان رد ديمقراطيـــة باريس على تهديدات الملك هو ذلك الرد التـــاريخى بـــالهجوم علـــى الباستيل، والذى "طرب له الأحرار فى كل مكان"[١].

وعلى عكس ذلك، فإنه فى الولايات المتحدة ، وفـــى ذات العـــام (١٧٨٩) تألفت لجنة صغيرة من رجال ذوى كفاية ممتازة، قاموا على إعداد دستور أمريكى، وكانوا يعقدون اجتماعاتهم وراء أبواب مقفلة فى مدينة فيلادلفيا الهادئة المتدينة[٢]، فتحقق لهم انجاز مهمـــتهم، دون أن تثيرهم العامة، أو بشغب عليهم الحاكم ٠

ومع ذلك فإنا نلحظ هنا أمرين:

أولهما أن الجمعية الوطنية الفرنسية وقد هيأت لها أحداث الأزمة المالية فى سنوات طويلة برنامجا وطنيا، ووجهت لها الدعوة للانعقـــاد قبل عام، وكثر عدد أعضائها، ورغم كل هذا لم تفلـــح فـــى مهمتهـــا، وكانت كثرة أعضائها عبئا عليها، فى مقابل أن المجتمعين فى مـــؤتمر السقيفة لم يعدوا له، ولم يتحدد من يحضر المؤتمر ومـــن لا يحضـــر،

---

(١) نجيب عبدالمسيح : نفس المرجع ص١١ ٠
(٢) نجيب عبدالمسيح : نفس المرجع ص١١ ٠

ومع ذلك لم تكن كثرتهم إلا انجازا مهما يتحقق به عموم البيعة وصحة الإجماع ٠

أما الأمر الثاني:

فإن دستور أمريكا عكفت على صياغته لجنة مختارة، قليلة فـــى عددها، محبوسة عن عموم شعبها، إذا رؤى ــ فى ذلك ــ أن اجتماع عموم الشعب لا يتيح للجنة فرصة العمل والإنجاز ، وهو أمر ــ كذلك ــ قد تم على خلاف ما تمت به البيعة العامة فى مسجد المدينة، حيــث أعلن الخليفة الأول دستوره بلسان حال الأمة ، وعلى مرأى ومســمع من الجميع مستقيا مواده مما أحكم وفصل فى الكتاب والسنة ٠

وفى هذين الأمرين مــا يؤكــد علـــى أن مســيرة الديمقراطيــة الإسلامية كانت أسبق وأنجح من كــل مــا حاكاهــا مــن ادعــاءات ديمقراطية من بعد، يدلل لذلك ويؤكده أن جمعية فرنسا الوطنية بعــدما أكملت صياغة الدستور فى حلال عامين (١٧ يونية ١٧٨٩م ــ ١٤ــ سبتمبر ١٧٩١م) أصدرت قانونا عابثا يقضى بتحريم انتخاب أعضائها فى الجمعية التشريعية الجديدة، مكتفية بإصدارها للدســتور، فمهــدت بعملها هذا إلى قيام حكومة استبدادية حربية، وبــذرت بــذور حــرب عامة[١] لتسجل بذلك فشلا ذريعا للمحاولة الديمقراطية التى دفعت إليها ظروف البلاد وأحوالها ٠

---

(١) هــ . أ . ل . فشر: تاريخ أوربا فـــى العصـــر الحــديث ص٢٢، نجيــب عبدالمسيح : نفس المرجع ص١٥ ٠

الريشستاغ الالمانى ومحاولة ديمقراطية :

سعت ألمانيا (بروسيا) ــ كما سعت دول من قبلها ــ إلى تحقيق سياسة برلمانية وممارسة ديمقراطية، كى تتسم هواء الحرية، ويعم الشعب بالمشاركة فى نظام الحكم ، فأنشأت مجلسا نيابيا سمى "الريشساغ"، ينتخب أعضاؤه بالاقتراع العام، غير أنه سلب حق تأليف الوزارات أو اسقاطها، أو الهيمنة على أموال الدولة العامة أو القوات الحربية، وبذلك لم يخول هذا المجلس النيابى حق السيادة على الحكم أو توجيهه ٠

فإذا كان هذا المجلس (الريشستاغ) لم يقترب من الديمقراطية الحقيقية التى أقرها مؤتمر السقيفة، فإنه ــ أيضا ــ لا يقوى على مقارنته بمجلس شورى عمر بن الخطاب (ﷺ) فيما بعد، والذى كان ــ على قلة عدد ممثليه ــ يتسيد كافة السلطات فى الدولة، بدءا من اختيار الخليفة (الحاكم) نفسه إلى كل ما يصاحب هذا العمل الحر المستنير من أمور أخرى. فكانت النتيجة أن هزمت سيادة البرلمان الألمانى على الحكومة، وضمنت للأوتقراطية الكلمة العليا، ليصير هذا البرلمان مجرد تجربه فاشلة تجاه الديمقراطية التى ظل الشعب يلهث وراءها إلى ما بعد هزيمة ألمانيا فى الحرب العالمية الثانية ٠

الملحوظة الثانية :

(الجو العام للمؤتمر والوقت الذى استغرقه) : بنظرة سريعة إلى الجو الذى انعقد فى أثنائه مؤتمر السقيفة نلحظ أنه كانت تظلله سحابات

كثيفة من الأسى والحزن وعلامات الاستفهام، لفقْد المسلمين لنبيهم ومعلمهم الأول، الذى جعلهم يتسامون على جاهليتهم التى كانوا فيها، ويتيهون فخارا على كل الأمم من حولهم — آنئذ — بما نقلهم إليه من عبودية لله ، وتسوية بينهم وجَعْلهم — أولا وآخرا — أمة واحدة تجتمع بهذا المنهج على قلب رجل واحد، فالجو إذن لا يسمح بأى نوع من الحساسية أو الحسابات الدنيوية المادية، لأن الجميع فى هذا المصاب الفادح سواء .

كما أنه بنظرة يسيرة إلى الوقت الذى استغرقته جلسة السقيفة ندرك أنها لم تستمر سوى ذلك الوقت الذى يتيح لنا ترديد ما تم فيها من مناقشات واقتراحات وتقنين النتائج، وأعتقد أن ذلك لم يكن ليستغرق سوى ساعة واحدة من الزمن تقريبا، هذه الساعة فى قياسات العصر الحديث ربما لا تكفى لقراءة جدول أعمال المؤتمر، ولا ننسى أن جمعية فرنسا الوطنية ظلت طوال عامين فى صياغة دستور لم يُعمل به، وعكفت لجنة الدستور الأمريكى أشهرا فى هذا الصدد، كل ذلك مع ما سبق من الإعداد والدعوة وتوالد الأفكار .

فإذا كان مؤتمر السقيفة قد تم على هذا الشكل من المفاجأة والسرعة وقِصَر مدة الانعقاد ثم تحقق له هذا القدر الأكبر من النجاح فما سر ذلك؟ إنهم أصحاب النبى ﷺ الذين جمعوا بين التدين والأخلاق، والقوة والسياسة، وكانت الإنسانية متمثلة فيهم بجميع نواحيها وشعبها ومحاسنها المتفرقة فى قادة العالم، وكان يمكن لهم

بفضل تربيتهم الخلقية والروحية السامية، واعتدالهم العجيب الذى قلما اتفق للإنسان، وجَمْعهم بين مصالح الروح والبدن، واستعدادهم المادى الكامل وعقلهم الواسع[١]، أن يحزموا أمرهم، ويتفقوا على ما اختلفوا من أجله، طالما تجلت الحقيقة، وظهر الحق، واهتدوا جميعا إليه بعيدا عن كل مزايدة تُزاحم المصلحة العامة، أو تغمط الحق .

الملحوظة الثالثة :

(تناسب عدد الأعضاء) : إذا اعتبرنا أن مؤتمر السقيفة كان بمثابة جمعية وطنية ـ بالمسميات الحديثة ـ ، فإنه يجوز لنا أن نقف على ملحظ هام ومُلح ، فات على الطاعنين على المؤتمر أن يلحظوه، ألا وهو تناسب عدد المشاركين فى المؤتمر من الفريقين (المهاجرين والأنصار) فالمهاجرون كانوا ثلاث رجال فقط، وهذا بالمفهوم الحديث لا يمثل جمعية وطنية يُدعى إليها عموم أهل الرأى ، ووجوه القوم لمناقشة أمر خطير، يتصل مباشرة بحكم البلاد وولاية أمر الأمة .

لكننا نقول : إن المؤتمر لم يُبن على خلافات سياسية أو فكرية أصيلة، وإنما قام بسبب أمر هام وعاجل هو خلو منصب الرئيس أو إمام الأمة بوفاة النبى ﷺ ، فهذه واحدة، أما الأخرى، فإن الرؤى الإسلامية آنئذ والتى تمثلت فى المؤتمر كانت تعتمد على أساس جوهرى هام، وهو أنها ديمقراطية مبادئ لا ديمقراطية أغلبية .

---

(١) أبوالحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ص١٠٣ .

بمعنى أنه يجوز للمؤتمرين أن يختلفوا، وأن تتعدد أرائهم ، لكنهم بالمناقشة الجادة ، والإقناع البناء المبنى على ما يوافق صالح العامة، يمكن أن يجتمعوا فى النهاية على ما يُصلح أمرهم، ويُرضى الحقيقة الوحيدة التى اجتمعوا من أجلها، وهى اختيار من يصلح للمهمة، ويقوم بأمر الأمة، فالهدف واحد وإن اختلفوا من أجله، وبناء على هذه القاعدة تذوب فوارق الجماعات، وتتلاشى نظرية التكافؤ فى الأصوات ، فالجميع هنا قد صار كلا لا يتجزأ من أجل إنجاح مهمة الكل، لا تحقيق رغبة المجموع ٠

الملحوظة الرابعة:

(التنازع على الموقع السياسى) : فهذا فى الأصول والممارسات السياسية الحديثة ينبنى عليه محاولة كل فريق تحقيق الفوز والنصر لمرشحه ومحاولة الضغط بكل إمكاناته ولباقته حتى لا يتيح لمنافسه جوا من الحرية أو الاقتراب من الظفر بالمنصب، أو محاولة تشييع السلطة واقتسامها بين المتصارعين عليها، وقد مثل ذلك فى ما انتهت إليه أعمال الجمعية الوطنية الفرنسية إذ نجمت الفوضى بناء على تشتت السلطات، وعمرت الملكية ــ وأن كانت كظل فقط ــ وصارت السلطة الفعلية فى يد أربعين ألف مجلس محلى[1]، كما ظهر عيب آخر نتج من المنطق الديمقراطى للثورة بعينه، هو اخضاع رجال الدين لدستور مدنى[2]٠

(١) هـ . أ . ل . فشر: تاريخ أوربا فى العصر الحديث ص١٨، ١٣٧، ٣٠٧

(٢) نفس المرجع ص١٨، نجيب عبدالمسيح: الثورة الفرنسية ونابليون ص١٦ ٠

وحتى فى ايطاليا فإن المساعى الديمقراطية وُلدت عقيمة، حيث كان البرلمان الإيطالى يُنتخب بطريقة التمثيل النسبى، وتعددت الأحزاب، وضعفت الوزارات، وكانت الخطابة حرة، والمناقشات طليقة من جميع القيود ، ولم يكن ثمة شئ فى حكومة البلاد يُلهب الوطنية فى النفوس، وتلتف حوله الآراء، فكان هذا كله كافيا لتشتيت القوى القومية، وشل الجهود الديمقراطية، مما نتج عنه آخر الأمر ظهور "بنيتوموسولينى" ثم ميلاد حزبه الفاشستى من بعد[١].

بهذا يمكن لنا أن نقرر أن مؤتمر السقيفة، أو (الجمعية الوطنية الإسلامية) فى المدينة المنورة، قد ارتفع بمستواه عن هذا التدنى الذى عاشته الديمقراطية الحديثة، وكان ضربا من الخيال (فى مفهوم الساسة الآن) لأنه بعد كل ما تم فيه من أحداث نتج عنها ترشيح المهاجرين للولاية، وثبوت الحق بهم — وهم فى دار الأنصار — نجد أن المنصب يتهادى برقة بين زعماء المهاجرين الثلاثة، فهذا أبوبكر يشير إلى القوم باختيار أحد الرجلين — عمر وأبى عبيدة — ولم يقع فى ذهنه أنه أحق به وأولى، ثم يقوم هذان فيزكيانه، ويؤثرانه على نفسيهما، ثم يقدمان الحجج والأدلة القاطعة على أحقيته بالمنصب، فأى دين هذا الذى يجعل الإمارة مطلبا للجميع من أجل لَمِّ شمل الأمة، ثم يجعل الكل يؤخر نفسه ويؤثر غيره؟!

---

(١) هـ . أ . ل . فشر : تاريخ فى العصر الحديث ص٦٠٠ .

أنه دين الإسلام الذى لا يفرق بين الحاكم والمحكـوم، والأميـر والمأمور، إذ الكل فى ساحة التوحيد سواء، وليس المختار للولايـة إلا كأحدهم ما دام يلتزم المنهج ويسلك سبيل الحق والخير٠

الملحوظة الخامسة : (**الدستور ـ صياغة فردية وموافقة اجماعية**):

بعد أن تمت البيعة للخليفة الأول لرسول الله ﷺ ، وقف فى الناس خطيبا مُلقيا إليهم بدستور صلاح الأمة ، مُبينا المـنهج الـذى عليـه سيسير، فكان ذلك "أول بيان سياسى للخلافة فى الإسلام"[١]٠

وجاء دستور أبىبكر مختلفا تماما عن كل الدساتير الوضعية من بعده، إذ كان مُستمدا من الأصول الإسلامية والقواعد التشريعية التـى تجد قبولا فى نفس الرعية جمعاء، فى حين نـرى أن كـل القـوانين والدساتير الوضعية ما تمت صياغتها إلا لبيان سلطة الحاكم، وحقـوق المحكومين ، وعلاقة كل منهما بـالآخر، وطـرق توزيـع السـلطة واستعمالها، وكل هذا تكفَّل به الدستور السماوى — "وإن كان القـرآن الكريم لا يُمثل دستورا بالمعنى الذى تعورف عليه فى الدول الحديثة"[٢] وبينه أتم بيان وأحسنه، وقام بتطبيقه المسلمون الأولون رعاة ورعيـة على خير وجه وأكمله "فكانوا بذلك ملوك الدنيا وسادة العالم"[٣]٠

---

(١) الدكتور : عبد المقصود نصار : أول بيان سياسى للخلافـة فـى الإسـلام ص١٠٠٦ ٠

(٢) الدكتور : على حسن الخربوطلى : غروب الخلافة الإسلامية ص٢٣ ٠

(٣) المرجع السابق، طه محمد الساكت : درجات الناس ص٧٩ ٠

فى حين كانت الدول من حولهم ــ من قبل ومن بعد ــ تخضع لملوك وأمراء يزعمون أنهم موكلون بمصالح البشر، وأن الله اصطفاهم للحكم بين الناس، حتى تجاسر البعض منهم فأعلن مقولته: "أنا الدولة"[١] كما أعلن آخرون أنهم ظل الله فى الأرض، فكان لهم على الناس حق السمع والطاعة، وليس للناس عندهم حق ولا واجب.

وعليه فمما يمكن قوله فى دستور أبى بكر الصديق (ﷺ) أنه وإن شارك القوانين الوضعية فى أن صياغة كليهما جاءت على لسان بشر ومن صنعته، إلا أن أبا بكر فى وضْعه لدستوره وخطة عمله لم ينهج ــ فى ذلك ــ منهجا دنيويا ومدنيا، وإنما استمد جوهره من خلال التزامه وتمسكه بالدستور السماوى المنزل على النبى محمد ﷺ وإن لم يكن فيه من هذه الناحية إلا إجمال بعض الواجبات والأحكام التى يفصلها النبى ﷺ بقوله وفعله من خلال سنته التى صارت الأساس الثانى من أسس التشريع، يشرحها الصحابة ويزيدونها تفصيلا بأقوالهم وأفعالهم كذلك ثم يزيدها تبيانا وإيضاحا المجتهدون والفقهاء من المسلمين.

"وعلى هذا فالحاكم الإسلامى له أن يؤول القرآن، ويفسر الحديث، ويبسط الأحكام، ويقيس الأمور بأشباهها، حتى يساير المصلحة العامة، أو حتى يساير المنقول والمعقول، وإذا كان فى الأمر

(١) محمد على علوبة باشا : الإسلام والديمقراطية ص٣٩، الدكتور: عبدالعزيز رفاعى: فجر الحياة النيابية فى مصر الحديثة ص٩ .

جديد فعليه أن يستبد (يتمسك) برأيه مستنيرا بالغرض الحقيقي من الإسلام، وبالهدف الأسمى للدين الإسلامي"[١].

ونقطة أخرى فى دستور أبىبكر ، هى أنه وضع دستوره مقننا لعمل الحاكم وملزما له، قبل أن يكون ملزما للرعية، فأكد بذلك على أن المحكومين هم رقباء على الحاكم وناصحين له، ثم هم بعد ذلك ملتزمون معه بما التزم به، وهذا هو جوهر القضية التى كدح الكثير من شعوب العالم للظفر بها فها هى — هنا — تتقرر بتلقائية من الحاكم بدون اعداد شعبى أو محاولات .

وفى نهاية بحثنا نقرر أن مؤتمر السقيفة لم يكن مسبوقا بعمل من هذا النوع حتى يَقتبس منه، ولم يكن — حتى — العرب من قبل الإسلام قد ألفوا نظام الدول وسياساتها، وإنما كان هذا الذى تم فى السقيفة عملا بِكرا جديدا لم يقم على نمط سابق، حتى وإن كان المسلمون — فيما بعد — قد أفادوا من نُظم الفرس والروم فى الإدارة والسياسة، فإنهم فى ذلك الوقت المبكر لم يأخذوا الفرصة لنيل هذه الإفادة التى لم تكن قائمة، فكان نجاحهم فى المؤتمر، أو نجاح المؤتمر بهم نتيجة إيجابية لكل ما تلقوه وما تعلموه على يد نبيهم ﷺ ، وامتثالا للمأمور به والمنهى عنه فى قرآنهم وسنة نبيهم .

كل ذلك فى حين نرى أن الديمقراطيات الحديثة ونداءات الحرية قد استغرقت فى تطورها ونضوجها قرونا عديدة، عانت الأمم خلالها من الاستبداد وحكم الفرد، وامتياز الطبقات، ولم تجد النداءات ولا

(١) الدكتور: على حسن الخربوطلى : غروب الخلافة الإسلامية ص٢٣ .

الإدعاءات متنفسا لها، أو مخرجا إلى النور إلا منذ بضعة عقود قريبة، وأيضا لم تبلغ حد الكمال، إذ ما يزال يكتنفها التمييز بين الأجناس والألوان، وبعض الامتيازات الطبقية التى هى مستمرة من قبل، فلم تصل بعد إلى حد النضج التام أو الاكتمال ٠

ثم هى كذلك لم تصل إلى حد أن تمثل نظرية إنسانية عامة ــ كما كانت فى الإسلام ــ تشتمل أو تتيح لكل البشر أن يتدثروا بدثارها، فما هى إلا نزعات قومية ، أو ديمقراطيات محلية متعددة، تصطدم ببعضها البعض إذا ما وجدت الأسباب!

ويحق لنا ــ الآن ــ وبثقة أن نقول لكل هؤلاء شعوبا وحكومات طاعنين ومنصفين. تعالوا إلى دين سمح نقى يُسوى بين كل من يستظل برايته ويتنسم عبيره، دين قد شرَّع من قبل كل ما تصبون إلى بعضه الآن، ويسوى بين الأبيض والأسود، والحر والعبد، والغنى والفقير، بل والحاكم والمحكوم ، على أساسٍ من التكافل الاجتماعى بين الكافة، يحتكم فيه الكل ويُساسون بمنهج إلهى قويم، دين فيه أصول ادعاءاتكم فى الحرية والديمقراطية، وحقوق الإنسان، وحب الطبيعة، والرفق حتى بالحيوان، دين فَصَّل أسسه وشرح تعاليمه نبى معصوم، فترك الناس على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا مهلك لنفسه و: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [1].

ولله الفضل والمنة وله الحمد أولا وآخرا ،،،

---

(١) الآية ١٠٨ من سورة يوسف ٠

مصادر البحث ومراجعه

١ - الإمام البخارى (أبى عبدالله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم ت٢٥٦هـ): صحيح البخارى طبعة ثانية. القاهرة ١٩٧٩م.

٢ - ابن خلدون (عبدالرحمن بن محمد الحضرمى) المقدمة. دار القلم. بيروت طبعة سادسة ١٩٨٦م.

٣ - الذهبى (محمد بن أحمد بن عثمان ت٧٤٨هـ) : تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام جـ٣ القاهرة (بدون).

٤ - السيوطى (جلال الدين عبدالرحمن بن أبىبكر ت٩١١هـ) : تاريخ الخلفاء. تحقيق: محمد محيى الدين عبدالحميد (بدون).

٥ - الطبرى (أبىجعفر محمد بن جرير ت٣١٠هـ) : تاريخ الرسل والملوك، دار المعارف طبعة ثالثة (بدون) .

٦ - ابن العربى (القاضى أبىبكر ت٥٤٣هـ): العواصم من القواصم بيروت ١٩٨٦م.

٧ - ابن قتيبة (أبى عبدالله محمد بن مسلم ت٢٧٦هـ): الإمامة والسياسة تحقيق : محمد الزينى. القاهرة ١٩٦٧م.

٨ - المعارف تحقيق د/ ثروت عكاشة ط٢ دار المعارف (بدون).

٩ - ابن كثير (الحافظ أبى الفدا إسماعيل بن عمر بن كثير ت٧٧٤هـ) : البداية والنهاية بيروت ١٩٧٤م.

١٠ - المسعودى (أبىالحسن على بن الحسين ت٣٤٦هـ): مروج الذهب ومعادن الجوهر كتاب الشعب القاهرة.

١١ - الإمام مسلم (أبوالحسن مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى ت٢٦١هـ) : صحيح مسلم بشرح الإمام النووى . دار الكتب العلمية ببيروت (بدون) .

١٢ - النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبدالوهاب ت٧٣٣هـ) : نهاية الأرب فى فنون الأدب . الهيئة المصرية العامة للكتاب. القاهرة ١٩٧٥م.

١٣ - ابن الوردى (زين الدين عمر) : تتمة المختصر فى أخبار البشر طبعة أولى . بيروت ١٩٧٠م.

١٤ - إبراهيم شعوط (الدكتور) : سياسة الهدم فى التاريخ الإسلامى مقال نشر فى مجلة منبر الإسلام . رجب ١٣٨٥هـ / أكتوبر ١٩٦٥م.

١٥ - السيد أبوالحسن الندوى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين طبعة ثامنة. دار نهر النيل ، القاهرة ١٩٨٩م.

١٦ - طه محمد الساكت : درجات الناس . القاهرة ١٣٧٠م.

١٧ - عبدالفتاح على شحاتة (الدكتور) : تاريخ الأمة العربية. القاهرة ١٩٧١م.

١٨ – عبدالمقصود نصار (الدكتور) : الخلفاء الراشدون . القاهرة ١٩٨٧م : أول بيان سياسى للخلافة فى الإسلام . مقال نشر فى مجلة الأزهر ز رمضان ١٤١١هـ / أبريل ١٩٩١م ٠

١٩ – على حسن الخربوطلى (الدكتور): غروب الخلافة الإسلامية. مؤسسة المطبوعات الحديثة بالقاهرة (بدون)٠

٢٠ – عباس محمود العقاد : عبقرية الصديق. القاهرة ١٩٨١م٠

٢١ – عبدالعزيز رفاعى (الدكتور) : فجر الحياة النيابية فى مصر الحديثة . القاهرة ١٩٦٤م ٠

٢٢ – لويس عوض (الدكتور) : تاريخ الفكر المصرى الحديث . طبعة ثالثة القاهرة ١٩٦٩م٠

٢٣ – الشيخ/ محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين . طبعة ثالثة. القاهرة ١٩٨٠م ٠

٢٤ – محمد على علوبة باشا : الإسلام والديمقراطية . القاهرة ١٩٥٠م٠

٢٥ – محمد حسين هيكل (الدكتور) ، الحكومة الإسلامية ، طبعة ثانية. دار المعارف ١٩٨٣م٠

٢٦ – محمد السيد سعيد (الدكتور) : الديمقراطية وتجاويف الخطاب الديمقراطى . مقال نشر فى مجلة العربى الكويتية . ربيع الآخر ١٤١٢هـ / نوفمبر ١٩٩١م ٠

٢٧ - نجيب عبدالمسيح: الثورة الفرنسية ونـــابليون، طبعـــة أولـــى القاهرة ١٩٥٠م.

٢٨ - هـ . أ . ل . فشر : تاريخ أوربا فى العصر الحديث . تعريب أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع . دار المعارف . طبعة سابعة ١٩٧٦م.

رقم الإيداع
١٩٩٣ / ٦٣١٧